

الحملة الصليبية الثامنة

☆ نزول الصليبيين بقيادة لويس التاسع إلى قرطاجنة التونسية

☆ وفاة لويس التاسع في تونس





الحملة الصليبية الثامنة

سنة ٦٦٨ هـ - ٦٦٩ هـ - ١٢٦٩ م - ١٢٧٠ م

قادة الحملة : ملك فرنسا (لويس التاسع)

سبب الحملة :

بعد الضربات الموجعة التي وجهها القائد المملوكي **الظاهر بيبرس** وجيشه المسلم ضد الغزاة الصليبيين في الشام، نكث **لويس التاسع** بعهدة فجهز حملة صليبية أخرى لقتال المسلمين إلا أنه لم يستطيع أن يتصدى للمماليك في بلاد الشام فما كان منه إلا أن وجه قواته نحو تونس. وتم خروجه من فرنسا يوم ١٥ مارس ١٢٧٠م والتحق به أتباعه وبعد إتمام عدته، اتجه يوم ٢ جويليه إلى مدينة كاغلياري وذلك على متن سفن جنوبية. وفي هذه المدينة **السردينية** اكتمل النصاب بوصول بقية المساهمين في الحملة. ومن الملاحظ إلى حد الآن أن جميع أعضاء الحملة كانوا متأكدين من تحويلهم إلى المشرق الإسلامي نحو مصر أو فلسطين، لكن **لويس التاسع** جمع قاداته ومرافقيه على متن سفينته، وطلب منهم الموافقة على تحويل وجهتهم نحو تونس. ولا تذكر المصادر ما هي المعطيات والعناصر التي اعتمد عليها الملك لإقناعهم، لكن يبدو أن جميعهم بما فيهم رجال الدين وافقوا على مطلبه لكن كيف تم له ذلك؟ بينما يعلمنا ابن خلدون أن لويس التاسع كان عازماً على غزو تونس قبل خروجه من فرنسا، وأن المستنصر الحفصي كان عالماً بذلك: إذ أمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختران الحبوب. وبالرغم من ذلك، فقد بعث برسول إلى لويس التاسع لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه ومن الممكن جداً أن عزمه على الاتجاه إلى تونس من الأول هو الأرجح. فعند اتجاهه المرة الأولى إلى المشرق سنة ١٢٤٨م تحول مباشرة عن طريق **قبرص إلى دمياط**. أما بالنسبة لهذه الحملة الثانية، فقد قدم عن طريق **سردينيا**، كما يفيدنا ابن خلدون « أن الطاغية جمع حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين بسرديانيا وقيل بصقلية ». إلا أن المصادر الغربية تؤكد أن العملية تمت ب**سردينيا**. هكذا يمكن إذن الاستنتاج أن **لويس التاسع** كان مقراً للعزم على الاتجاه إلى تونس قبل خروجه من فرنسا، أيضاً أنه لم يعلن ذلك من الأول حتى يتجنب انسلاخ القادة الآخرين عنه ولم يتم إعلامهم باتجاههم إلى تونس إلا في آخر لحظة حتى وضعهم أمام الأمر الواقع. الدكتور محمد الباجي بن مامي

الحفصيون

ينتمي الحفصيون إلى قبيلة صمود البربرية، ومسكنها في جبال الأطلس. استمدت لتسمية من أبي حفص عمر (١١٧٤-١١٩٥ م) أحد أجداد الأسرة ومن رجالات ابن تومرت الأفياء. أصبح ابنه من بعده من عمال لموحدين على تونس. قام ابنه من بعده الأمير أبو زكريا يحيى (١٢٢٨-١٢٤٩ م) بالاستيلاء على السلطة وأعلن استقلاله واستطاع أن يؤسس دولة استغلت الدولة الموحدية في المنطقة. **فنى ابنه المستنصر (١٢٤٩-١٢٧٧ م) على الحمسة الصليبية الثامنة (سنة ١٢٧٠)**، ثم اتخذ لقب أمير المؤمنين. بعد وفاته تنازع أولاده الحكم. وجرت حروب طاحنة بينهم. في أواخر القرن ١٣ م انشق عن الأسرة فرعين، حكم أحدهما في بجاية، والآخر في قسنطينة. في منتصف القرن ١٤ م استولى المرينيون على البلاد بعد جلاء المرينيين استعادت الدولة حفصية حيوية نشاطها مع حكمه كل من بي العياشي أحمد (١٢٧٠-١٢٩٤ م)، أبي فارس عبد العزيز (١٢٩٤-١٤٣٤ م) ثم أبي عمر يحيى (١٤٣٥-١٤٨٨ م). عرفت هذه الفترة الاستقرار وعم الأمن برحاء الدولة. أصبحت العاصمة **تونس** مركزاً تجارياً مهماً ابتداءً من سنة ١٤٩٤ م بدأت مرحلة السقوط السريع. استقلت العديد من المدن والمناطق، منذ ١٤٠٥ م سيطر العثمانيون عن طريق قادتهم **عروج وخير الدين بربروس** على المنطقة. حاصر القيصر طورجرماني كارل الخامس (وملك إسبانيا باسم كارلوس الأول) تونس سنة ١٥٣٥ م. آخر الحفصيين وقع بين الضغط المتزايد من القادة العثمانيين والذين استقروا في الجزائر من جهة، وإسبانيا من جهة أخرى. سنة ١٥٧٤ م بفض حكم الجزائر في دخول تونس، ثم خلع آخر السلاطين الحفصيين ودخلت بذلك تونس تحت سلطة العثمانيين.



قبل وصول الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس، أصبح المستنصر رمزاً هاماً في العالم الإسلامي. فهو مع لقب الخليفة الذي تسمى به سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، اتخذ أيضاً لقب أمير المؤمنين، ولا يستبعد أن يكون هذا العامل من الأسباب التي دفعت لويس التاسع إلى تغيير اتجاه الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس. ومن البديهي أن مهاجمة هذا الرمز الذي أصبح له كثير من الدلالات ستشكل هزيمة انتصاراً روحياً ومعنوياً على بقية العالم الإسلامي. ومن الممكن جداً أن لويس التاسع أراد أيضاً من وراء حملته هذه إضعاف المستنصر وبالتالي منعه من إغاثة الأندلس، التي مثلت هي الأخرى حلقة من حلقات صراع المسلمين مع القوى النصرانية، وبالتالي يمكن تصور موقف الملك الفرنسي من قضية إخوانه في الدين، الذين كانوا يصدون الاستيلاء على البقية المتبقية من الإمارات الإسلامية في الأندلس. وهكذا، فإن الهجوم على تونس ساعد بصفة فعلية في وقف أي مساعدة يمكن أن تصل إلى مسلمي الأندلس، وهو بالطبع ما كان يصبو إليه كل الصليبيين، بمن فيهم لويس التاسع. أما ابن خلدون، فيفسر مبادرة لويس التاسع، برجوعه إلى الفترات القديمة من تاريخ إفريقية التي كانت من أول البلاد التي دخلت الدين المسيحي وساندته إلى أن جاء الإسلام، وكان الفتح. فيوضح صاحب «المقدمة» أن ذلك هو ما يفسر أنه لم تزل في نفوسهم (أي النصارى) من ذلك ضغائن، فكان يخالفهم الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه. وهو -عمرى غير- مستبعد. فخلال فترة الحماية الفرنسية لتونس لاحظنا الكثير من المستشرقين الذين يميلون إلى هذا النوع من التفكير. وقد وجدت هذه الحملة هي الأخرى مساندة البابا أوربان الرابع، فلا غرابة إذن في قرار سان لويس أن يقود حملتين صليبيتين، وهو ما يدفعنا إلى الاحتمال إلى أن دوافعه كانت في مرتبة أولى دينية حتى أنه سمي بالقدّيس لويس، ثم اقتصادياً واجتماعياً.



نزول الصليبيين بقرطاجنة وخطة المستنصر بالله الحفصي

جاءت الأخبار إلى المستنصر بالله تعلمه بتوجه **الصليبيين** إلى **تونس**، فعقد مجلسه الشورى الذي بحث فيه كيفية التعامل مع الحدث، هل يسمح للصليبيين بالنزول، أو يصدون عنه. وأخيراً استقر الرأي على أن يسمح لهم بالنزول مخافة أن ينزلوا في مكان آخر غير حصين. ولا مستعد لقتال، وبعث بالنفير على أطراف مملكته، فجاءت النجدات من مختلف الجهات.

وفي آخر ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ ١٢٧٠ م، أرسلت أساطيل **لويس التاسع** أما مدينة **قرطاجنة العتيقة**، وأنزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة من **قرطاجنة** وكانت مائلة الجدران. ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى. وكانت عدتهم ستة آلاف فارس وثلاثين ألفاً من الرجال، وكانت أساطيلهم ٣٠٠ مركب بين كبير وصغير، ولم يشرع **الصليبيون** في مهاجمة أو قتال جدّي: فقد كان **لويس التاسع يتربص** و**وصول أخيه شارل دانجو من صقلية**.

وفي واقع الأمر أن **المستنصر بالله** لم يفكر في مهاجمة **الصليبيين**: فقد كانت خطته مبنية على مجرد الدفاع والمحافظة. وكان جنده يتكون من جيشه، وقوات الموحدين، ومن المتطوعة. وملئت سواحل قرية رادس بالجند تحت قيادة محمد بن أبي الحسين، رئيس الدولة. وعقد ألوية سبعة تحت نظر يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح الحصار الصليبيين من الناحية البرية، وخرج كثير من الصلحاء والفقهاء، والمرابطون لمباشرة القتال بأنفسهم. ولم تكن بين الفريقين معارك ذات أهمية سوى ما ذكره ابن خلدون من أنه في أول محرم سنة ٦٦٩ هـ **وقعت معركة كبيرة** قتل فيها كثير من الفريقين كما قام بعض الجند بمفاجأة للصليبيين عندما سلكوا طريق



بقايا لآثار لويس التاسع موجودة في الرفرف

البحيرة حتى وصلوا إلى المعسكر الصليبي من طريق غير منتظر خروجه من وظفر هؤلاء المغامرون ببعض الشيء من الصليبيين الذين تفتنوا لهذا، وأقاموا حراسة من جانب البحيرة. وطالت محاصرة الصليبيين حتى ناهم التعب والجوع، وتفتت فيهم الأمراض والأوبئة **ولم يسلم لويس التاسع منه. فمات بإصابة وبائية** في المحرم سنة ٦٩٩ هـ في نفس اليوم الذي وصل فيه **أخوه ملك صقلية** وبعد ساعات من موته، فباشر القيادة بنفسه: لكنه فضل الصلح مع المستنصر الحفصي.



طوال المدة التي مكثها الصليبيون بقرطاج تقارب (أربعة أشهر) ، في حين يرى ابن خلدون أنها ستة أشهر .

تجمع المصادر على أن لويس التاسع قبع

في تحصياته بقرطاج

إلا أن سكان البلاد الذين يعرفون بطريقة جيدة الطرق المؤدية إلى قرطاج، استطاعوا في العديد من المرات التسلل عن طريق البحيرة ومباغثة جيوش العدو، إلا أن المصادر الغربية نسبت ذلك إلى تظاهر الأعراب بالدخول في الديح النصراني. وهذا افتراء محض. عند اقترابهم من صفوف الصليبيين غدروا بهم وطمعوا البعض منهم. على كل هذه المناوسات لم تأت بأي نتيجة تذكر، إذ عرف الصليبيون الأماكن التي يصل منها المسلمون فحصنوها ووضعوا حراساً في البحيرة.



مواقع وتجمع الأطلس بين أطلال قرطاج الأثرية (تونس)



اطلس أكملات الصليبية على المشرف الإسلامي

قال أحد الشعراء عظماء تونس التابع بتونس،

فهاهنا لما إليه تصير يا ترفيعين هذه أخت مصر

ومواشيك منكر وتكبر لك فيها دار لسان قيسر

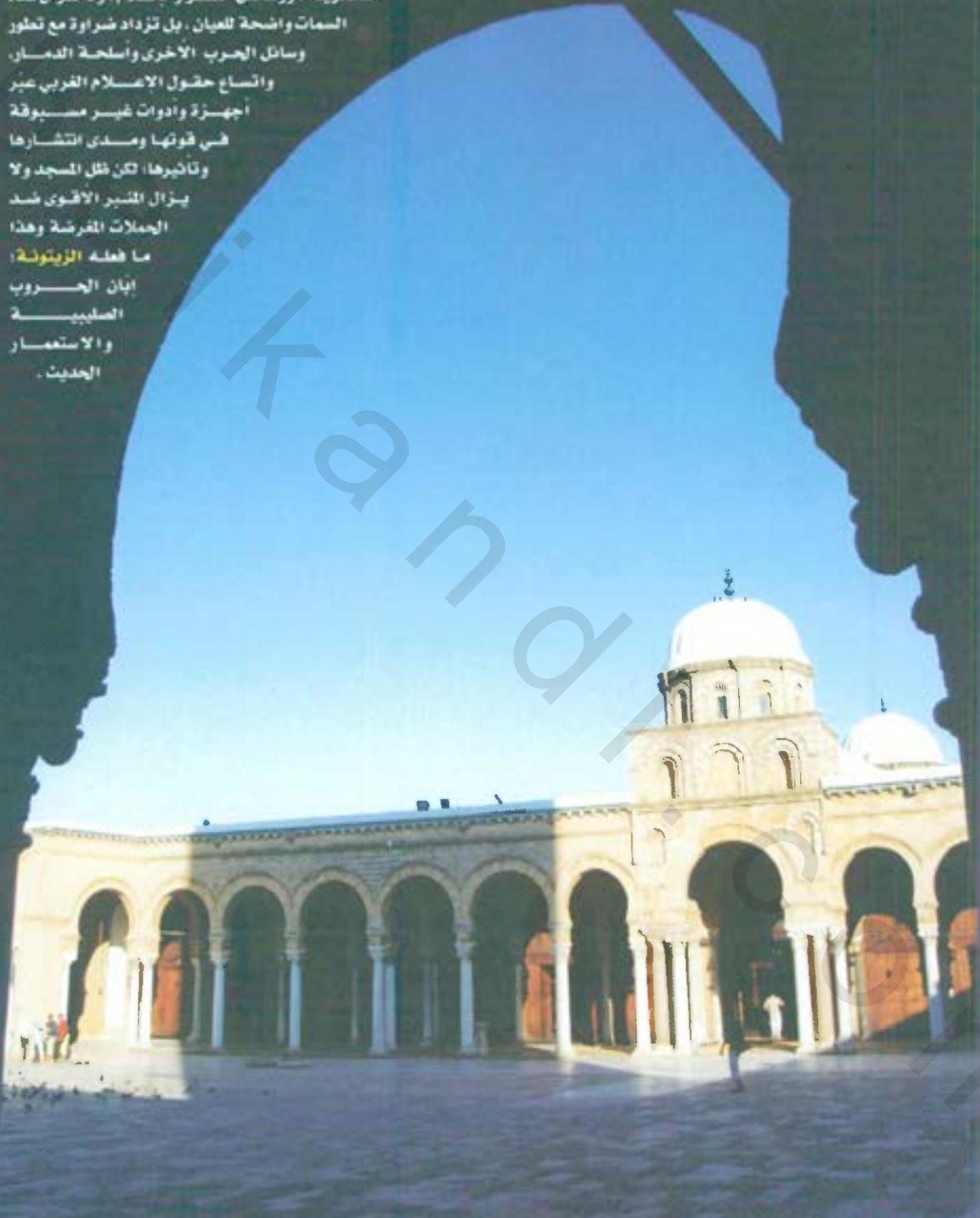
باب البحر عند مدخل تونس القديمة الملقب على شارع فرنسا

كان أهم ما اشتملت عليه **اتفاقية الصلح بين الصليبيين والمسلمين**، عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمسة عشر عاماً تدفع أثناءها الفرامة الحربية التي التزم بها المستنصر بالله الحفصي للصليبيين، وأن يقع احترام مصالح الطرفين الدينية والتجارية، وألا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالاً أو مآلاً. وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة **بملك صقلية** في شأن الأموال التي ادّعاها على الدولة الحفصية .

وكان الذي تولى كتابة عقد الصلح القاضي ابن زيتون . وكان حاضراً معه أبو الحسن علي بن عمرو، وأحمد بن الغماز، وأب زيان بن محمد بن عبد القوي . وباتمام العقد على الصلح اتصل الفريقان اتصالاً سلمياً، ودخل المسلمون محلة النصارى وباعوا معهم واشتروا، وكان **تهدئة إقامتهم بتونس أربعة أشهر** - كما ذكرنا ذلك على الصورة في الصفحة السابقة - وأقلعت القوات الصليبية عن تونس بعد مدة يسيرة من إتمام الصلح . وصادفتها - عرض البحر - عاصفة شديدة أتت على الكثير من سفنها ورجالها، ووصلت البقية إلى جزيرة صقلية القريبة من تونس **سلة** .



اتكأ الصليبيون على التوسع الاستعماري لدولهم الصليبية. وأن ذلك التوسع قام - ولا يزال - على دعمتين هما: القوة العسكرية، ووسائل النشر والأصلام. ولا تزال هذه السمات واضحة للعيان. بل تزداد شراسة مع تطور وسائل الحرب الأخرى وأسلحة الدمار. واتساع حقول الإغلام الغربي عبر أجهزة وأدوات غير مسبوقه في قوتها ومدى انتشارها وتأثيرها. لكن ظل المسجد ولا يزال المنبر الأقوى ضد الحملات المفرشة وهذا ما فعله **الزيتونة**: إبان الحروب الصليبية والاستعمار الحديث.



جامع الزيتونة التاريخي: أحد المعالم الإسلامية العظيمة في تونس العاصمة، والذي وقف سداً منيعاً ضد محاولات الصليبيين لتحصير هذا الشعب المسلم الأبي. هذا الشعب الذي كان له دور بارز في نشر الإسلام في الأندلس والقارة السمراء. اللقطات بعدسة مصمم ومؤلف الأطلس.

أهم مصادر ومراجع الباب العاشر

- ١ - الدكتور محمد الباجي بن مامي، حملة لويس التاسع على تونس (فصل من الحروب الصليبية)، مجلة التاريخ العربي، أعداد مختلفة .
- ٢ - ستيفن رنسيمن - تاريخ الحروب الصليبية - ترجمة السيد الباز العريني - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٩م .
- ٣ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٢م .
- ٤ - محمد مصطفى زياد - حملة لويس التاسع - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- ٥ - موسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية .
- ٦ - سامي بن عبد الله المغلوث، الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى . دار الوراق، طبع ونشر ١٤١٩ هـ .

